قالت الفتاة: قاتلك الله يا عجوز السوء، لماذا تنصلين من التهمة؟ أما كان الأَوْلى أن تتمهلي لمحة لعلِّي كنتُ أنوي أن أشكركِ على ما صنعتِ؟

فطاش الفرح بهمام، وأوشك قلبه أن يفلت من نياطه، وانتشى نشوة خمسين كأسًا في رشفةٍ واحدةٍ، وقال وهو يهجم على «ماريانا»: بل دعي لي أنا أن أشكرها، إنني أُقبِّل وجنتيها ... إنني ألثم فاها ... وصنع ما يقوله قبل أن تفيق «ماريانا» من دهشتها وقهقتها، ومال إلى الفتاة قبل أن تدري ما هو صانع قائلًا: وأُقبِّلكِ أنتِ أيضًا إكرامًا لماريانا. وقبَّلها!

ثم جلس مأخوذًا بما حدث يتوقع ماذا تكون الكلمة الأولى التي تلفظها الفتاة؛ أتشتم؟ أتصطنع الغضب؟ أتنطلق من المنزل؟

وكأنما كان التوقع هو شغله الشاغل في حينها دون ما يتبعه من ثورةٍ أو مسامحةٍ، فاستطال الأمد، وما انقضت غير ثوانٍ في توقع ما يكون، وزاده فرحًا على فرحٍ أن شيئًا مما توقعه لَمْ يحدث، وأن كل ما حدث أن الفتاة بهتت وراحت تقول شيئًا لا بد أن يُقال، فقالت في صوتٍ خافتٍ: لقد آذاني شاربك الطويل!

وتم التعارف بالأسماء.

واسترسل الحديث أصداء لا يقصدها القائل ولا يصغي إليها السامع، لحظة يسيرة ثم انقلب الفرح غمًّا ثقيلًا بغير منفذٍ وبغير دلالة، فإن الفتاة لبثت تتكلم ويبدو من عينيها أنها تفكر في غير ما تتكلم، ثم خرجت ساهمة بغير استئذان إلا حين قاربت الباب، فقد انثنت تحيي همامًا تحية مَن يؤدي «واجب اللياقة» لا تحية مَن يجامل في وداع.

قال همام: ما معنى هذا؟

قالت «ماريانا»: لا عليكَ منها، إنها ستعود يومًا لا محالة.

قال: لستُ عن هذا أسأل؟ فهل هي غاضبة؟

قالت: ممَّ تغضب؟ أمن القبلة؟ فلِمَ لَمْ أغضب أنا؟!

قال: خيبة الله عليكِ يا عزيزتي ماريانا ... دعينا من غضبكِ أنتِ ورضاكِ، فإنها هي القبلة الأولى والأخيرة بغير مراء! ولئن رضيتِ عنها فما أنا براضٍ ... ولكن الذي يعنيني ألَّا تكون قبلتها هي القبلة الأولى والأخيرة. فما رأيكِ؟

قالت: ابغِ لكَ مستشارًا غيري، إنني أعرف كيف أوفق بين الكسوة وصاحبتها، ولا معرفة لي بالتوفيق بين رجلٍ وامرأة!